الباب الخامس
العصر الحديث
الفصل الأول: نظرة عامة

مازال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب: وفي تلك البلاد بقى النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل، فارفض عنها الوهن وسرت فيها الحياة. ففي مصر كان ملاذها وغياثها، وفي مصر كان بقاؤها وانبعاثها!.

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً، وتحت سيطرة المماليك فعلا. وكانت الأهواء المختلفة، والقوى المتضاربة، والأجناس المتباينة، تنحر في هيكل هذه الأمة البائسة، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشت فيهم الأمية. واستولى عليهم الجهل وألحت عليهم الأوباء والسنون. واستغلهم الظلم واستبعدهم الحكام. ووقفوا عن السير بأنفسهم، وتحرك الفلك، فغزاهم على هذه الحالة الأليمة نابليون.

غزا نابليون مصر سنة 1798، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية. فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر، فأنشئوا مدرستين وجريدتين [1] ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً [2]، ومكتبة، ومطبعة، ومعامل

---

(1) الجريدتان هما (الأعشور المصري) La Decade Eygptienne وسميت بذلك لأنها كانت تصدر كل أسبوع، والأسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي كان عشرة أيام، ثم بريد مصر Le cgueier d Egypte وقد كانوا ينشرون بالعربية (التنبيه) لإذاعة المهم مما يجري في ديوان القضايا.

(2) أنشأ يونابرت " المجمع العلمي المصري " في السنة التي دخل فيها مصر بمنزل حسن جرجس في الدرب الجديد بحي الناصرية؛ وألفه من ثمانية وأربعين عضوا. ربعهم للرياضيات وربعهم الثاني

كيمائية ومراصد فلكية، وسهلوا للناس النزر إليها، والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقبس الوضاء سطع في ذلك الغيهب الذي احلولك في سماء مصر فبدده، واستطاع الناس أن ينظروا؛ ولكن ماذا رأوا؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيلا الحياة الصحيحة، مجد في تذليل المادة، فبهتوا ودهشوا.

ولكن محمد علي رأس الأسرة الخديوية لم يدهش، بل علم أن ما في الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم. وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم، وكان في نفسه الطموح إلى الملك، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له. فأخذ في تعليم المصريين وقد عز فيهم القارئ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقرى وساق الناس إليها قسراً. واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف. كالدكتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية، وجومار بك مدير البعثة المصرية. وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة 1826 ليستفيدوا ويستزيدوا. فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا في الترجمة والتعليم. ثم توالت البعوث بعد هؤلاء إلى أوربا وكلهم من ألزهر الشريف. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط. وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة، وأقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم. وأنشأت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق، فكان ذلك كله وقوداً جزلا للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا

=

للطبيعيات. والربع الثالث للاقتصاد السياسي، والربع الرابع للآداب. وجعل رياسته للأستاذ منح ووكالته لنابليون نفسه. وقد قام هذا المجمع بأبحاث قيمة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر، ثم أغلق هذا بخروج الجيش الفرنسي من مصر وفي سنة 1859 فكر جماعة من جالية الفرنسيين أن يعيدوه فأعادوه، ولا يزال قائما بحي المنيرة بالقاهرة.

واشتعل وامتد لهيبه إلى الشام وإلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام. وحذا الأمير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر، وأعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع وتأليفهم الكتب، وإصدارهم المجلات وتعليمهم التمثيل، واعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم، فترجمت الكتب العلمية، ونشرت المؤلفات العربية، ودب في اللغة دبيب الحياة؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء؛ لأن محمدا علياً كان مصروف الهم إلى ما يعوزه، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية، قانعاً من كتابه وعماله باللسان العامي، والأسلوب الاصطلاحي. فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مهماً معجماً من التركية والعربية.

على أن اللغة المضرية لم تعد في ذلك العصر أنصاراً. فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار، وبطرس كرامة، السيد علي الدرويش، ورفاعة بك الطهطاوي، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها.

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً حتى ولى الأمر عباس ثم سعيد، فخبا أوارها، ووقف تيارها، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم.

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة 1863م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد عليها. فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، وعاد إلى إرسال البعوث إلى أوربا، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يده للمؤلفين، ونشر أولية المدنية والسكينة على ربوع البلاد، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة، وفيهم العلماء والأدباء؛ فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين، وكثرة المطابع، ووفرة المدارس، وانتشار الصحافة، واقتباس التمثل، وترجمة العلوم، والأندية الأدبية، والمجامع العلمية، وتعلم اللغات الأجنبية؛ ونقل الحضارة الأوربية، والحرية الشخصية، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح، وسعة المدارك، ونهوض اللغة، وحياة الأدب.

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة 1882م وكل شيء يتحفز للنهوض. ويتوثب إلى الرقي، فكأنما ألقيت ماء على نار، أو أقمت سداً في تيار كانت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، والمدارس وافرة العدد، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسيرون بالتعليم إلى وجهة أخرى. فأغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا التعليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

ولكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجليها، وأن تمسح عينيها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم. فهب رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم. ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعوث إلى أوربا، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية. وشبت ثورة الاستقلال في وجه الاحتلال سنة 1919م وردد العالم العربي صداها، فأيقظت ما بقى من شعور خامد، ودفعت النفوس الخانعة إلى طلب الحرية في الحكم، والرأي، والقول، والعقيدة. حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة 1923م.

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة 1936. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام 1945 طلبت مصر من انجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل. وعارضت انجلترا في الأساس الأول فلجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية. فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا، وتولى عرضها رئيس حكومتها، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي، قطع لسان الباطل بالحق، وفند دعاوي الإنجليز بالحجج الدامغة؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصري بقيادة

الضباط الأحرار في 23 يوليو من سنة 1952 فعصفت بالفساد والاستبداد، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغني فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه. فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر. وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية.

وفي شهر فبراير من عام 1958 اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة. وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهوري وفي الرابع عشر من يوليو من سنة 1958 ثار العراق على الملكية وأعان الجمهورية، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون الغاية من هذه السبيل، ويترقبون الإصباح بعد هذا الليل المظلم الطويل.